التحليل النفسى للعقل البدائى

دراسة مقارنة

بقلم : أحمد أبو زيد

ليسانسيه فى الآداب

كان من أهم ما استرعى انتباه علماء الأنثربولوجيا فى دراستهم لمظاهر الحياة العقلية عند البدائيين ما يبين فيها من تناقض واضطراب وما يظهر من أن سلوكهم لا يستند إلى أى تفكير منطق ، حتى إن ليفى بريل Lévy-Bruhl وصفها بأنها عقلية غير منطقية أو عقلية سابقة على المنطق mentalité prélogique بمعنى أن عقلية الرجل البدائى تختلف عن عقلية الرجل الحديث ليس فى الدرجة فحسب بل فى النوع أيضاً والواقع أن علماء الأنثربولوجيا وقفوا طويلا أمام هذه المسألة وحاولوا تفسير ذلك التناقض الغريب والشذوذ اللذين يبدوان فى سلوك البدائيين وعوائدهم وعقائدهم ، ووضعوا لذلك تقسيمات عديدة لم تفلح تماماً فى معرفة أصل ذلك التناقض والشذوذ ، إلى أن جاءت مدرسة التحليل النفسى وأخذ علماؤها يوجهون اهتمامهم إلى ميدان الأنثربولوجيا وإلى دراسة العقلية البدائية على ضوء نظريتهم الجديدة فى علم النفس التحليلى لعلهم يصلون بذلك إلى تفسير ذلك التناقض ومعرفة نشأته . وقد استخدم فرويد Freud هذه الطريقة فاستطاع بها أن يدرس بعض سلول البدائيين ونظمهم المختلفة وأن يردها الى الدوافع والرغبات المكبوتة فى اللاشعور ، أو بقول آخر أن مظاهر الحياة العقلية عند البدائيين تقرب أشد القرب من سلوك العصابيين حتى إننا لنستطيع أن ندرس العقلية البدائية أتم دراسة على ضوء تحليل نفسية العصابى . وقد جاء من بعد فرويد علماء كثيرون مثل جيزا روهايم Géza Róheim ورايك Reik وإرنست جونز Jones وغيرهم عززوا من نتائجه ووصلوا بها إلى مدى أبعد ؛ وكل

نتائجهم تؤكد الصلة الوثقى بين الحياة العقلية البدائية وبين الأفعال العصابية الوسواسية أو الأفعال العصابية القهرية[١]

وإذا كان سلوك البدائيين يبدوا لنا فى ظاهره شاذا لا معنى له إلا أنه فى الواقع يخفى أسسا جوهرية صادقة لها معنى ، ويقوم على دوافع كامنة لا يشعر البدائى بها ولا يدريها . فالرجل البدائى مثلا يخاف فى العادة أن يقتل الطوطم ولكنه فى فترات معينة يقتله بالاشتراك مع أفراد القبيلة ؛ وهم حين يقتلونه يقومون ببعض الشعائر التى تدل على الفرح ولكنهم لا يلبثون أن يبكوه مُرَّ البكاء وينقلب فرحهم حزنا . وهم يبكون الميت ويندبونه ويقومون بكل ما من شأنه أن يجعل ذكراه حية ماثلة أمامهم ولكنهم مع ذلك يخشون الأموات أشد خشية ويحرمون على أنفسهم الاقتراب منهم وهكذا . فكل هذه الأفعال المتناقضة تقوم فى الواقع على دوافع كامنة لا شعورية فى النفس ؛ ومثل البدائى فى ذلك مثل المريض بعصاب وسواسى يجعله يأتى بأعمال وتصرفات تبدو غريبة غير مفهومة حتى فى عين المريض ذاته ، كالمريض الذى يسير فى الشارع ثم يتوقف فجأة ويتردد فى هل يسير أولا بقدمه اليمنى أو بقدمه اليسرى[٢] أو المرأة التى كانت تأخذ أرقام أوراق النقد قبل أن تصرفها وغير ذلك من الحالات الشاذة التى تبدوا أنها لا تقوم على أساس من التفكير المنطقى وإن كان لها فى حقيقة الأمر دوافع لا شعورية يمكن معرفتها والوصول إليها بالتحليل السيكولوجى . فالسلوك الظاهرى عند البدائى والعصابى إذن يخفى وراءه دوافع لا شعورية لها معناها ؛ وإن كان مع ذلك لايجدان محيصاً عن القيام بتلك الأفعال ولا يستطيعان مقاومتها ، وان أفلحا فى تنحيتها لبعض الوقت شعرا بنوع من القلق الشديد anxiety وعدم الاستقرار يدفعانهما دفعاً الى القيام بها ؛ أى أنهما يشعران بأنهما « مقهوران » أو « مجبران » على القيام بتلك الأفعال .

---

(١) العصاب القهرى compulsion neurosis والعصاب الوسواسى obsessional neurosis كلتان لهما معنى واحد . وهما تسميتان للاصطلاح الألمانى Zwangsneurose وهو مرض عصابى معين سوف نعرض له فى هذه المقالة . ويفضل الأمريكيون التسمية الأولى بينما يستخدم الإنكليز التسمية الثانية — راجع فى ذلك مقال الدكتور لوين Dr. Lewin عن Obsessional Neurosis فى كتاب Psychoanalysis To-day.

(٢) Ibid. p. 200

وقد لا تكون هذه المشابهات وحدها كافية لتقرير اقتراب الأفعال العصابية من سلول البدائى ؛ والواقع أن هناك أساساً آخر أقوى من ذلك تقوم عليه هذه الدعوى؛ وهو أن كل النظم البدائية تقوم فى الأصل — فى نظر مدرسة التحليل النفسى — على أساس عقدة أوديبوس بمعنى أنها جميعاً نشأت عن كراهية الابن لأبيه وحبه لأمه كما هو الحال تماما فى معظم الأمراض العصابية . وتفصيل ذلك أن معظم الشعوب البدائية تتبع النظام الطوطمى ؛ فالطوطمية Totemism تحل عنـدها محل الدين وتقوم مقام النظام الاجتماعى ؛ والطوطم Totem كما يعرفه فريزر Frazer « مجموعة من الأشياء المادية ينظر إليها المتوحش بعين الاعتبار والاحترام دون أن يكون هناك سبب معقول يدفعه لذلك ، ويعتقد الرجل البدائى بوجود صلة قوية تربطه بتلك الأشياء .. وعلاقة الشخص بالطوطم علاقة نفع متبادل ؛ فالطوطم يحميه من الأخطار وهو يظهر له فى مقابل ذلك التجلة والاحترام بشتى الطرق والوسائل فلا يقتله إن كان حيوانا ولا يقطفه أو يجذبه عن الأرض إن كان نباتاً [١] . ويعتقد الناس فى القبائل الطوطمية أنهم ينحدرون عن ذلك الطوطم كما تتسمى القبيلة كلها باسمه ؛ أى أن الطوطم عندهم هو رمز للأب أو الجد و بديل عنه [٢] . ومن هنا يجب علينا أن ندرس موقف البدائى من الطوطم ونقارن ذلك بموقف العصابى (أو حتى الرجل العادى و إن كان بدرجة أقل) من أبيه ما دام الطوطم بديلا عن الأب ؛ فلقـد كان لهذا الأصل اللاشعورى أثره فى انصراف المتوحش عن قتل الطوطم أو أكله أو حتى لمسه أو النظر إليه ومن يتعدى ذلك يكون نصيبه الموت [٣] ، كما أن كل التحريمات والنواهى التى نجدها عند البدائيين منشأها أيضاً نظرتهم تلك إلى الطوطم واعتبارهم أنفسهم منحدرين عنه فلا يجوز لهم قتله (وهذه هى نواة عقدة أوديبوس) . وقد أدى ذلك التحريم إلى قيام النظم الاجتماعية والخلقية والسحرية عند البدائيين ؛ وهذه هى المسائل الثلاثة

(١) راجع Frazer : Totemism and Exogamy

(٢) W.McDougall : Psycho-analysis and Social Psychology. (Methuen. 1937). p. 116.

(٣) S. Freud : Totem and Taboo. (Penguin Books-London 1938. p. 144-145.

التى سوف نعالجها — بالترتيب — فى هذا البحث كنماذج لاستخدام التحليل النفسى فى دراسة العقل البدائى وتفهمه .

* * *

ولعل الوظيفة الاجتماعية الأساسية التى يلعبها الطوطم تتجلى فى العلاقة القوية والتماسك الشديد بين أفراد الطوطم الواحد ؛ وليس من شك فى أن هذه العلاقة أقوى بكثير من العلاقات التى بين أفراد العائلة الحديثة . ويحرم النظام الطوطمى قيام الصلات الجنسية بين أفراد الطوطم الواحد لأنهم إخوة (ينحدرون عن جد واحد) أى انهم محارم ؛ فكل علاقة جنسية بينهم تكون بذلك علاقة زنى محرمة ؛ ولذا كان الزواج الداخلى (الإندوجامى Endogamy الزواج من نساء الطوطم أو القبيلة) ممنوعا هناك منعاً باتاً وكانت كل حالات الزواج حالات خارجية (إكسوجامى Exogamy الزواج من غير نساء الطوطم أو القبيلة) وعلى ذلك يمكن إرجاع النظام الإكسوجامى السائد عند البدائيين إلى الخوف من الزنى بالمحارم « فحيث يوجد النظام الطوطمى توجد قوانين تحرم على أعضاء الطوطم الواحد أن تنشأ بينهم علاقات جنسية من أى نوع ، أى تحرم عليهم الزواج فيما بينهم »[1] فخوف البدائيين إذن من الزنى بالمحارم أدى بهم إلى وضع قيود شديدة الوطأة على الزواج وجعلهم يعتبرون جميع نساء الطوطم من المحارم حتى من يعيش منهن فى جهات بعيدة متفرقة بل وحتى النساء اللاتى لا تربطهم بهن إلا أبعد الصلات الدموية ؛ ومن هنا نجد « أن هؤلاء المتوحشين يبينون لنا عن درجة غير مألوفة من الخوف من الزنى بالمحارم ، والشعور بذلك الزنى مرتبطاً بخاصية أخرى « لا نكاد نفهمها تمام الفهم وهى أنهم يحلون العلاقة الطوطمية محل رابطة الدم الحقيقية»[2] وإن كان ذلك لا يمنعهم من الزواج من بعض القريبات ممن ينتمين طوطما آخر.

ويضع البدائيون كثيراً من القواعد والقيود الغريبة التى من شأنها تحديد سلوك الفرد وصلاته بنساء طوطمه حين يبلغ سن المراهقة ؛ ولا نرى بأسا من أن نذكر شيئاً من الأمثلة حتى يتبين القارىء مقدار ما يفرضه البدائيون على أنفسهم من قيود

(١) Freud : op. cit; p. 19 (٢) Ibid. p. 21

فى جزر الهبريد مثلا نجدهم يحتمون على الأبناء حين يصلون إلى هذه السن أن يغادروا بيوت آبائهم إلى منزل عام يجمع كل من فى سنهم وذلك لكيلا يتسنى لهم أن يروا أمهاتهم وأخواتهم ؛ بل إنهم يحرمون عليهم حتى مجرد الاتصال بهن ؛ فإذا رأى الشاب أمه أو أخته مصادفة فى الطريق وجب على كل منهما أن يخفى وجهه وأن يسير فى ناحية غير التى يسير فيها الآخر ؛ وإذا كان الرجل يسير فى طريق رأى عليها آثار أقدام وعرف فيها أقدام أخته أو أمه وجب عليه أن يغير طريقه ، بل أن بعض القبائل تحرم على الشاب أن يتلفظ باسم أخته [1] وفى قبائل وسط استراليا يقضون على الفتى المراهق أن يغطى وجهه حين يسير فى الطريق حتى لا يبصر النساء ؛ وإن رأى آثار أقدام امرأة (أيا كانت) على الأرض وجب عليه أن يقفز فوقها دون أن يطأها بقدميه . وكذلك لا تسمح بعض قبائل افريقية للمراهق أن يجلس على فراش أو حصير واحد مع أمه [2] .

ولكن ما الدافع إلى كل هذه التحريمات التى يبدو أن الرجل البدائى نفسه لا يدرك سرها ؟ — لا بد لنا هنا من الرجوع إلى أساس نشأة الطوطم لنقابله بتصرفات الأبناء وسلوكهم — وخاصة العصابيين — نحو أبيهم .

لقد دل البحث على أن الطفل يتجه بنشاطه اللّذى فى أول الأمر إلى الأم ؛ ولكنه يجد أن أباه ينافسه فى مصدر لذته ويشاركه فيه ولذا يكره الابن أباه ويتمنى استبعاده. فهنا نجد أن موقف الإنسان نحو أبيه موقف ثنائى ؛ فهو من ناحية يحب أباه ولكنه من ناحية أخرى يكرهه ويرغب فى قتله لأنه يتمتع بالاتصال الجنسى بأمه التى يتركز نحوها لذة الطفل الجنسية Libido ؛ وهذه القيمة الجنسية تتقهقر شيئاً فشيئا إلى منطقة اللاشعور فى الإنسان العادى . فالشخص العادى فى الحياة المدنية إذن تكبت فيه كل دوافع الزنا بأمه والكراهية لأبيه فلا يعود يشعر بأى إغراء شعورى نحو أمه وإن كان ذلك كامنا فى الواقع فى اللاشعور . . ولكن هذا الكبت لا يتم

(١) Ibid. p. 26-7 (٢) راجع Th. Reik : Ritual-Psycho-Analytic Studies. (Hogarth Press. 1931. p. 198-9

على هذه الدرجة من الكمال فى حالة العصابى الذى تظهر فيه دوافع الإغراء الداعر بالمحارم شعورياً مما يبعث فى المريض الخوف والفزع الشديد[١] .

ولا يختلف موقف البدائى من طوطمه عن موقف العصابى من أبيه . . . لقد قلنا إن البدائى يعتبر الطوطم بديلا عن الأب ؛ ففى العشيرة الأولى primal horde كان الأب يتزوج من عدة نساء ، وكان — حين يبلغ أبناؤه المراهقة — يشعر بالغيرة منهم على زوجاته ولذا كان يبعدهم عنه أو ينفيهم خوفا من أن يشاركوه نساءه . وكان الأبناء يظلون بعيدين عن أبيهم و يتجمعون معا حتى يشتد ساعدهم فيغيروا عليه و يقتلوه و يأكلوا جسده و بذلك يخرجون إلى حيز الفعل الرغبة العدائية التى يشعرون بها نحوه . إلا أن هذه الرغبة كانت تزول سريعاً بعد قتل الأب وتظهر بدلا منها عاطفة الحب فيشعرون لذلك بالندم على ما جنوا ؛ و بدلا من أن يتزوجوا من نساء أبيهم — وهن نساء العشيرة كلها فى الغالب — يحرمونهن على أنفسهم . ومن هنا نشأت الأكسوجامى exogamy (الزواج من غير نساء القبيلة) ؛ ومن هنا أيضاً يصبح الأب المقتول طوطما و يبقى الخوف من الزنى قويا عند الأبناء[٢] . فالقيود التى يفرضها البدائيون على أنفسهم — وخاصة على المراهقين — الغرض الأصلى منها هو منع الزنى بالأم ، ثم اتسعت هذه الدائرة شيئاً فشيئا حتى شملت كل نساء القبيلة لأنهن يعتبرن إما أمهات أو أخوات للرجل[٣] .

ولعل ذلك يتضح أشد وضوح فى الشعائر التى يقيمها البدائيون وقت المراهقة ، إذ أنهم جميعاً يكادون يجمعون على ظاهرة واحدة هى تمثيل قتل المراهقين فى حفلات تنصيبهم ، إذ يقود الآباء أبناءهم إلى الغابة بين بكاء النساء و يوهمونهم بأنهم سوف يقدمونهم طعاماً للشياطين ، و يظل الفتية فى الغابة أياماً — أو شهوراً أحياناً —

(١) راجع R. Money-Kyrle : Superstition and Society. (Hogarth Press 1939) p.51.

(٢) لعل القارئ قد أدرك الآن تفسير ما قلناه فى مبدأ هذه المقالة من أن البدائيين يقتلون الطوطم أحياناً ويأكلون لحمه ثم يبكونه بعد ذلك ، فالمدرسة التحليلية تفسر ذلك العمل بأنه مجرد تمثيل للحالة التى حدثت فى العشيرة الأولى على ما بينا هنا .

(٣) راجع : W. Mc Dougall : op. cit. p. 118-Freud : op. cit. p. 22

بعيدين تماماً عن النساء ويقاسون خلال هذه المدة أشد أنواع الآلام والتخويف كما تجرى لهم عملية الختان ثم يجىء الآباء مرة أخرى يخلصونهم من براثن الشياطين.[١] ولا شك أن الغرض من كل هذه العمليات هو استئصال رغبات الفتيان الشريرة ضد آبائهم أو هى بمثابة عقوبات توقع عليهم وتهديد لهم من الآباء بالموت ورد فعل سيكولوجى على رغبات الطفل اللاشعورية لقتل أبيه، كما أن عملية الختان ـ وهى رمز لعملية الإخصاء ـ انما هى بمثابة عقاب على تلك الرغبات الداعرة فى نفس المراهق[٢]

ومن ذلك يتضح أن موقف الرجل البدائى من الطوطم الذى هو بديل الأب يشابه تماماً موقف العصابى الحديث من أبيه، وأن المجتمع يقوم فى أصله على ذلك الموقف الثنائى.

* * *

والواقع أن خوف الرجل البدائى من العلاقات الجنسية بالمحارم وابتعاده عنها، وبالتالى ابتعاده عن الزواج الإندوجامى endogamy (الزواج من نساء القبيلة) وتجنبه أكل الطوطم، كلها صور من القاعدة العامة التى تحرم على الإنسان الاقتراب من كل ما يعتبر لامساس (تابو Taboo). والتابو يعبر عن نفسه فى شكل تحريمات وقيود ونواهى تفرض على الإنسان بإزاء شىء معين. وقد يكون التابو إنساناً (مثل تحريم الاقتراب من شيخ القبيلة) أو شيئاً (كتحريم لمس ما يملكه الرئيس أو تحريم الاقتراب من مكان دفن الموتى) أو عملا (كتحريم المواقعة الجنسية قبل الخروج للحرب) وغير ذلك[٣].

ويفرض البدائيون قيوداً كثيرة على كثير من الأشياء دون أن يكون هناك مبرر واضح لذلك. ويعتقد فرويد أن التابو فى أصله كان تحريمات قديمة صريحة انتقلت

---

(١) يذكر رايك (ص ٩٩) أن الاسم الذى يطلق على الشياطين هناك يرادف معنى الجد أو روح الجد. وذلك يعنى أن الجد — أو الأب الأكبر للقبيلة — هو الذى يقتل أبناء القبيلة. — راجع تفاصيل هذه الشعائر فى: Reik : op. cit. p. 92-101

(٢) Ibid : p. 105-106

(٣) Money-Kyrle : op. cit. p. 68.

من جيل إلى جيل ، وكانت هذه التحريمات تفرضها فى الأصل سلطة الأب أو المجتمع على رغبات الشخص حتى تمنعه من عمل شىء ما ، وعلى ممر الأيام تنوسى الدافع الأصلى عليها وأصبحت هذه التحريمات شطراً من التقاليد المتوارثة وجزءاً من الخصائص النفسية الموروثة . ففى كل تابو نستطيع إذن أن نميز بين ناحيتين : فمن ناحية نجد الشخص يريد عمل الشىء المحرم ولكنه من ناحية أخرى يخشى نتيجة ذلك الفعل . وهذه هى الثنائية التى تميز كل أفعال البدائى ، ورغبة العمل هنا رغبة لا شعورية كما هو الحال فى الأفعال الوسواسية تماماً (١)

يعرف ڤوندت Wundt التابو «بأنه كل تحريم يظهر على شكل عادات أو سلوك ، فى شكل قوانين تحظر علينا أن نلمس شيئاً معينا أو نستخدمه لمصالحنا نحن ، أو أن نستعمل كلمات معينة أثناء الحديث . . . » ومن هذا التعريف يتضح لنا أنه ليست الشعوب البدائية أو المتوحشة هى وحدها التى تفرض على نفسها لامساسات (تابو) بل ان كل الشعوب — أياً كانت درجة رقيها وحضارتها — لها لامساساتها الخاصة فنحن مثلا نضع لأنفسنا لامساسات (تابوات) تظهر على شكل النواهى الخلقية والتحريمات والقوانين الدينية وما إلى ذلك مما يحرم على الإنسان أن يفعله(٢) « فالتابو بعد كل شىء ليس بعيداً عنا كما قد يخيل الينا لأول وهلة ؛ لأن النواهى الخلقية والتحريمات التى تفرضها علينا العادات والتى نخضع لها قد يكون لها علاقة جوهرية بالتابو البدائى الذى قد يلقى تفسيرُه بعض الضوء على أصل النواهى والأوامر الخلقيه عندنا(٣) » ؛ وعلى ذلك فليست مبادىء الأخلاق إلا نوعا من التابو ؛ لأن الأخلاق لا تنهى عن شىء إلا إذا كان مرغوبا وإلا لم تكن هناك حكمة فى الزجر والنهى ؛ فالسارق مثلا لا يسرق ، ويخاف أن يسرق لأن الأخلاق تنهاه عن السرقة ولكنه فى نفس الوقت عنده رغبة لا شعورية فى السرقة وامتلاك أشياء الغير ، وهكذا نجد فى ميدان الأخلاق نفس الثنائية التى نجدها فى التابو . وإذا كان هناك فارق بين

(١) راجع Freud : Totem and Taboo. p.45
(٢) Money-Kyrle : Superstition and Society. p. 69
(٣) Freud : op. cit. p. 43

التابو والنواهى الخلقية فهو أن الإنسان يعرف الغاية من النواهى الخلقية وليس كذلك فى حال التابو ؛ فالأخلاق تنهى عن السرقة مثلا لغاية واضحة معقولة يدركها الإنسان تماماً

ولكن الرجل المتمدين الحديث — اذا أبعدنا ميدان النواهى الخلقية — قد تحدث له نكسة فى سلوكه فيرتد الى مرحلة التابو — إن أمكن هذا القول . فقد نجد أن الرجل يحرم على نفسه لمس شىء معين أو فعل عمل من الأعمال دون أن يدرى سبب ذلك فيخاف مثلا أن يبدأ سيره بالقدم اليسرى أو أن يطأ كذا من الأشياء (فتكون حالته أشبه شىء بحالة البدائى الذى يخاف أن يكلم رئيسه أو ينظر إليه دون أن يدرى السبب الحقيقى) . وهؤلاء هم العصابيون الذين يضعون بأنفسهم لأنفسهم تابوات خاصة يرقبونها بكل دقة كما يراقب البدائى التابو الذى يضعه له المجتمع ، ولذا يسمى فرويد العصاب القهرى أحيانا بمرض التابو Taboo disease [1] . فالتحريمات القهرية كالتابو تماماً — ليس لها دافع شعورى وكل ما يدريه الشخص هو أنه إن فعل الشىء المحرم فإنه قد يضر بشخص ممن يتصلون به .

و يعتقد الرجل البدائى أنه إن لمس التابو صار هو ذاته (تابو) ؛ بمعنى أنه يعتقد أن التابو كالعدوى ينتشر و يسرى و ينتقل من شىء لآخر . مثال ذلك أن قبائل الماورى تعتبر أنفاس شيخ القبيلة تابو يحرم الاقتراب منها والتعرض لها ، وعلى ذلك فلو فرض أن الرئيس نفخ فى نار عليها قدر فيه لحم فإن اللحم يصير تابو ، لأن التابو انتقل من أنفاس الزعيم إلى النار ومن النار إلى القدر التى تلامس النار ، ومن القدر إلى اللحم الذى يلامس القدر ؛ و بذلك يحرم على الرجل أن يأكل ذلك اللحم و إلا مات . و يذكر فرويد أن أحد زعماء الماورى أضاع ذات مرة قدّاحته فوجدها بعض الأفراد فأشعلوا منها غلاييهم ، ولما عرفوا صاحبها انتابهم فزع عظيم لأن الشيخ يعتبر تابو وقدّاحته بذلك تابو وكذلك اللهب المنبعث عنها ، وعلى ذلك فإن الدخان الذى كانوا يدخنونه والذى أشعلوه بلهب القداحة كان هو أيضاً تابو ، وانتهى أمرهم بأن

(١) Freud :— p. 47.

ماتوا من الفزع [١] . فنواة التحريم إذن هو لمس الشيء المحرم ، واللمس لا يقتصر على اللمس المباشر بل إن كل ما يؤدى بالفكر إلى التابو يعتبر هو ذاته تابو ؛ وهذه الخاصية نجدها أيضاً فى الأفعال العصابية القهرية . ونضرب مثلا لذلك حالة امرأة من مرضى فرويد كانت تشعر بخوف عظيم ينتابها من أن تمس بعض الأدوات المنزلية التى اشتراها لها زوجها ؛ وقد وجد بالتحليل النفسى أن سبب ذلك هو أن زوجها اشترى هذه الأدوات من شارع معين وليكن اسمه مثلا (شارع شتاج) ؛ وظهر أن هذه السيدة كانت قبل أن تتزوج قد أحبت رجلا يدعى شتاج وأنها تقاوم فى نفسها الرغبة فى العودة إليه و بذلك أصبح ذلك الاسم (مستحيلا أى تابو) . ثم انتقلت تلك (الاستحالة) حتى شملت كل شيء يتصل بهذا الاسم من قريب أو بعيد [٢] . أو خذ حالة سيدة أخرى من مرضى فرويد أيضاً . كانت إذا جلست إلى الطعام تترك أشهى وأطيب ما يقدم لها من المأكولات وتأكل ما دون ذلك دون أن تدرى هى نفسها علة ذلك . ولكن عرف بالتحليل أن هذه السيدة كانت — لبعض أسباب عائلية — قد هجرت زوجها فى المضجع ولم تكن ترضى بأن يباشر معها العملية الجنسية وهى أشهى وأطيب ما فى الزواج ؛ ثم انتقل ذلك وامتد على شكل عصاب وسواسى جعلها ترفض كل ما هو شهى وطيب [٣] . فواضح إذن من هذه الأمثلة خاصية انتقال التابو من شيء لشيء ، وخوف المريض من لمس التابو وكل ما يمت إليه بصلة مهما كانت بعيدة . ويعتقد فرويد أن كثيرا من الأفعال العصابية تتعلق بتحريم الملامسة الجنسية أى كبت الدافع الجنسى .

ومن كل ما سبق نستطيع أن نلمح العلاقة القوية بين التابو والأفعال الوسواسية أو العصابات القهرية ؛ و يمكن تلخيص الخصائص المشتركة التى تلتقى عندها كل من الناحيتين فى : —

(١) عدم وجود حافز أو دافع شعورى للتحريمات أو النواهى .

---

(١) Ibid : p. 68 (٢) Ibid : p. 38 (٣) راجع كتاب S. Freud : Collected Papers Vol. II (Obsessional Acts) — p. 29.

(٢) خاصية التحريمات والتابو القهرية وشعور الإنسان بقلق شديد إن لم يراعها بدقة .

(٣) قدرتها على الانتقال والخوف من العدوى من الشيء المحرم .

(٤) إملائها على الإنسان فعل عمل معين دائماً لا يستطيع أن يتحرر منه ، بل يكرره دائماً فى صورة واحدة معينة لا تتغير حتى تصير بمثابة نوع من الشعائر أو المراسيم تظهر من الشيء المحرم مثل غسل اليدين عدة مرات فى اليوم[١] .

بيد أن هناك على ذلك بعض اختلافات بين الأفعال العصابية و بين التابو . فالرجل البدائى من ناحية يخشى أن يخرق التابو خوفا من العقاب الذى سوف يحل به هو ، وذلك بخلاف المريض بعصاب قهرى فهو لا يخاف من أن يقع العقاب على شخصه ، بل على شخص آخر عزيز لديه و إن كان لا يعرف بالضبط من هو ذلك الشخص ؛ أى أن المريض بقول آخر يتصرف تصرفا (غيريا) يظهر فيه عنصر الإيثار بعكس سلوك البدائى فهو سلوك (أنانى)[٢] . ومن ناحية أخرى نجد أن المريض هو الذى يقيم التابو والنواهى ويخلقها بنفسه لنفسه بعكس البدائى الذى يفرض المجتمع عليه من خارج تلك التابوات والتحريمات دون أن يكون له هو فيها يد .

لقد رأينا أن سلوك البدائى — وخاصة فيما يتعلق بالتابو — إلى الآن كان سلوكا سلبياً محضاً يقتصر على تجنب بعض أفعال أو أشياء معينة مخافة أذاها وما ينجم عنها من شر وذلك يعنى أن كل تلك الأفعال والتصرفات السلبية ترمى إلى غاية واحدة هى الدفاع عن النفس ضد ما قد ينشأ من أخطار من جراء فعل التابو وقد رأينا أيضا أن البدائى يتفق فى هذه السلبية إلى حد كبير مع العصابى أو أن أفعال العصابى ترمى كلها أيضاً إلى تأمين النفس أو إلى التقليل على الأصح من القلق العصبى الذى ينتاب المريض إزاء القيام ببعض الأفعال ؛ أى أن البدائى مثله فى ذلك مثل العصابى حين يتجنب التابو وحين يراقب تلك التحديات والقيود المفروضة عليه فإنه يهدف إلى أن يدفع عن نفسه قلقاً شنيعاً لابد أن ينزل به إذا لم يأخذ نفسه بهذه القيود .

---

(١) Freud : Totem and Taboo. p.50 — راجع أيضاً العدد الأول من مجلة علم النفس (يونيو ١٩٤٥) ص ٦٥ — ٦٦ .

(٢) Freud : Ibid. p. 103

ولكن إذا كان سلوك البدائى فى كل ذلك سلوكا سلبياً قاصراً على تجنب بعض الأفعال والموضوعات فإن له سلوكا آخر إيجابياً يقفه نحو العالم والناس ، وإن كان ذلك السلوك يرمى إلى تأمين الذات وإبعاد الشر ودفع الأذى ؛ ثم إلى السيطرة على العالم وإخضاع قوى الطبيعة كلها أما الدافع إلى هذا السلوك فهو نظرة الرجل البدائى وفكرته عن العالم.

فالرجل البدائى يتصور العالم مليئاً بالأرواح والأشباح والشياطين التى تتغلغل فى كل شىء وتحل حتى فى الأشياء غير الحية ذاتها ، ويعزو إلى هذه الأرواح السبب فى حدوث الظاهرات الطبيعية كلها — وخاصة الظاهرات العنيفة الخطرة ، فقبائل وسط استراليا مثلا يعتقدون أن العاصفة هى روحان خبيثان أو شيطانان فى حالة جماع جنسى[١] ويعتقد الرجل البدائى أن هذه الأرواح فى غالبتها أرواح شريرة لا تضمر للناس سوى الشر ولذا كان ينبغى عليه أن يقف منها موقفاً إيجابياً قوياً ليدافع عن نفسه ضدها بل وأن يبدأها بالشر قبل أن تبدأه هى به وأن يخضعها لقوته وسلطانه ؛ وهو يتوهم أن له من القوة ما يساعده على ذلك ، وأنه بمقتضى هذه القوة يستطيع أن يسيطر على هذه الأرواح ويستخدمها لصالحه وأن يخلق فى عالم الحقيقة أشياء وظواهر واقعية بمجرد تفكيره فيها أو بمجرد محاكاتها وتقليدها ، ويلجأ فى ذلك إلى وسائل وطرق غريبة هى التى نسميها السحر ؛ فهو مثلا إذا أراد أن يقتل عدوه فإنه يكتفى برسم صورته أو كتابة اسمه على قطعة من الورق ثم يحرقها أو يمزقها أو يطعنها بخنجر ؛ أو قد يستولى على بعض أجزاء من جسمه مثل الأظافر أو الشعر فيحرقها ويظن أن مجرد ذلك الفعل سوف يحقق له ما يريد . وإذا أراد أن يستنزل الماء من السماء مثلا لرى الزرع فإنه يمثل الرعد والبرق والغيوم ثم يصب شيئاً من الماء على الأرض من (غربال) مثلا — كما يحدث فى بعض جهات اليابان ؛ وإذا أراد إخصاب الأرض خرج إلى الحقول ليلا وباشر العملية الجنسية مع امرأته وهكذا[٢] ؛ فهو بذلك يحاول أن يوجد

(١) Cf. : Róheim (Géza) : Riddle of the Sphinx (Hogarth Press). p. 28.

(٢) Freud : Ibid. p. 113 seq. 9

فى الخارج وفى عالم الواقع علاقة بين بعض الموضوعات على مثال ما يتصورها فى ذهنه أى أنه يخلق لنفسه عالماً خاصاً يتصور أن قواه تستطيع أن تسيره وتهيمن عليه .

ولا ريب فى أن هذه النظرة الغريبة إلى العالم تحتاج إلى شىء من التفسير حتى نتبين البواعث على وجودها فى ذهن البدائى ، وهنا أيضاً نعمد إلى التحليل النفسى ليلقى على المسألة بعض الضوء .

وأول ما يميز هذه النظرة هى تصور البدائى العالم ممتلئاً بالأرواح ، وأن هذه الأرواح شريرة شيطانية على الخصوص ، وأنها تضمر له الشر ولذا يجب أن يقابلها بالشر فما الباعث على ذلك التصور ؟

لقد دل البحث على أن البدائين يعتقدون أن تلك الأرواح التى تتغلغل فى كل شىء هى أرواح الموتى من الآباء والأجداد ؛ ولعل فى مجرد ذلك الاعتقاد ما يفسر للقارىء خوف البدائيين منها لو أنه تذكر ما سبق أن قلناه عن موقف الإنسان من أبيه ورغبته فى موته بمقتضى عقدة أوديبوس ؛ فخوف البدائى من الأرواح — وهى أرواح أجداده من الموتى — هو رد فعل سيكولوجي على هذه الرغبة اللاشعورية فى موت الأب ؛ فهو بذلك يخشى انتقام هذه الأرواح على هذه الرغبة ومن هنا كان يعتبر تلك الأرواح شريرة يجب اتقاء شرها ودفع أذاها . ولقد درس الدكتور جيزا روهايم Géza Róheim مسألة أصل الشياطين والأرواح فى أواسط أستراليا دراسة موضوعية دقيقة فى كتابه (لغز الإسفنكس) ثم أخذ فى تحليل الأساطير التى حيكت حولها تحليلا سيكولوجيا مستعينا بدراسة أحلام بعض الأستراليين التى تظهر فيها هذه الأرواح ، فانتهى به البحث إلى أن الشياطين ليست إلا إسقاطات projections لأعضاء العائلة وخاصة الأب والأم والابن ولكن فى حالة استخفاء وتنكر على صورة هذه الكائنات غير الطبيعية ؛ وأن الشياطين نتجت فى الأصل نتيجة لرؤية الطفل العملية الجنسية بين والديه لأول مرة primal scene ؛ فالطفل لا يسمح له قط برؤية والديه فى حال الجماع الجنسى ؛ والأبوان لا يجتمعان فى العادة إلا حين « يظنان » الطفل نائماً ؛ فحين يرى الطفل العملية الجنسية يشعر بلذة ولكنه إلى جانب ذلك

يشعر بأنها لذة ممنوعة محرمة عليه ، فيكبت إحساساته اللذية فى نفسه ويحاول أن ينسى ما رأى . ولكن هذه المشاعر المكبوتة لا تلبث أن تظهر فى الأحلام على شكل شياطين فى حالة جماع . وقد كان الشخص الحالم — بعد أن يدقق روهايم فى سؤاله — يذكر أنه تعرف فى تلك الشياطين على بعض ملامح من أبويه ، فالطفل إذن يرتاع من النظرة الأولى ولكنه يستثار لذياً وبذلك يبغى قتل أبيه ليحل محله فى مباشرة أمه ، ولكن يوقفه عن ذلك عدم نضجه الجنسى وخوفه من غضب أبيه وخاصة من أن يجرى له عملية الإخصاء ؛ وبذلك يحاول أن ينفى أنه رأى والديه وأنه لم ير إلا الشياطين[١] . فكأن الشياطين والأرواح على العموم ترجع أصولها بذلك إلى عقدة أوديبوس Oedipus Complex . وعلى ذلك فالرجل البدائى حين يخاف الشياطين والأرواح فإن خوفه يكون فى الواقع رد فعل على رغبته اللاشعورية المكبوتة فى أن يموت ذلك الشخص الذى يخشى روحه أو شيطانه بعد موته .

كذلك وصل التحليليون بالمقارنة إلى أن هناك شبهاً كبيراً بين الرجل البدائى فى نظراته إلى العالم وبين بعض المرضى العصابيين ، فالمريض بالجنون الهذائى التأويلى مثلا paranoia يعتقد أن كل جيرانه يضمرون له الحقد والشر وإنه إن لم يهاجمهم ليدرأ عنه شرورهم لحقه الأذى منهم ؛ كما أن المريض بالهجاس السوداوى hypochondria يتوهم أن جميع شرور العالم سوف تنصب فى أى لحظة فوق رأسه[٢] . كذلك يبين التحليل النفسى أن مايتوهمه الرجل البدائى فى نفسه من قوة وقدرة على السيطرة على العالم تشبه مايتوهمه كثير من العصابيين فى أنفسهم ؛ فقد نرى بعض العصابيين يتوهمون فى أنفسهم قدرات خارقة ؛ وقد أسمى أحد مرضى فرويد هذه القدرة المتوهمة « بقوة الفكر المطلقة » . Omnipotence of thought وبمقتضاها يتصور العصابى أن مجرد الإفصاح الذاتى عن بعض رغباته كفيل بتحقيق ما يرغب . ومثل العصابى والبدائى فى ذلك مثل الطفل الذى يطلب بعض المطالب

(١) Róheim G. : op. cit. p 29-31.
(٢) Money-Kyrle (R) : op. cit. p. 100

العسيرة ويتصور أن مجرد طلبه ما يريد ينيله إياه ؛ وليس العصابى والبدائى بعد كل شىء سوى طفلين لم ينضجا بعد .

والخلاصة من كل ذلك أن مظاهر الحياة العقلية عند البدائيين يمكن دراستها دراسة أوفى وأعمق وأقرب إلى الصواب بالإستعانة بالتحليل النفسى وخاصة بتحليل نفسية العصابيين ، لأن الرجل البدائى ليس فى حقيقة الأمر إلا إنسانا لم تتطور حياته النفسية والعقلية ولم تنضج ولم تصل إلى ماهى عليه فى الرجل المتمدين الحديث ؛ فهو إنما يمثل دور الطفولة البشرية ؛ كما أن العصابى هو أيضاً رجل حدثت له نكسة فى حياته النفسية ردته إلى مرحلة الطفولة . وهذه المماثلة هى الأساس الأول الذى يقوم عليه كل التحليل النفسى للعقل البدائى . لقد قلنا فى مطلع حديثنا إن كل تفسير للحياة العقلية البدائية ومظاهرها المختلفة من نظم وعادات وتقاليد وعقائد لايكون تفسيراً مقنعاً يعتد به إن لم يفلح أولا وقبل كل شىء فى تفسير الشذوذ القريب البادى فى تصرفات البدائيين وفى رد ذلك السلوك إلى عناصره الأولى ، ولقد تعرض التحليل النفسى لهذه المشكلة وأفلح إلى حد كبير فى حلها وذلك باستخدام نظرية ثنائية العاطفة ambivalence أو على الأصح موقف الإنسان الثنائى المزدوج إزاء أبويه كما يظهر فى عقدة أوديبوس . ولقد عرضنا فى هـذا البحث الموجز عرضاً سريعاً لثلاث مسائل من المسائل الكثيرة التى تناولها علم النفس التحليلى وأفلح فى أن يفسرها تفسيراً أقل مايقال فيه إنه أكثر توفيقاً وإقناعاً من بقية التفسيرات والنظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية التى تناولت نفس هذه الموضوعات ، وعلى الرغم من العيوب والانتقادات التى وجهت إلى استخدام هـذه الوسيلة فى ميدان الأنثروبولوجيا ، وعلى الرغم من المآخذ الكثيرة التى أخذت عليها ، فلا ريب أن استخدام التحليل النفسى فى هذه الدراسات قد ألقى ضوءاً ساطعاً على فهم العقلية البدائية . لقد درج كثير من العلماء على فصل ميادين العلوم — وخاصة العلوم البشرية — بعضها عن بعض مع أنها جميعاً فى الواقع علوم متكاملة تساعد بعضها بعضاً فى تفهم الحقيقة ؛ وهذا يصدق تماماً على التحليل النفسى

والأنثروبولوجيا ؛ فهما فى الواقع مظهران لأصل واحد ويدرسان موضوعاً واحداً من جهتين مختلفتين ولذا فإن من العبث أن نفصل بينهما — إن استخدام التحليل النفسى فى ميدان الدراسات الأنثريولوجية مع أنه لايزال حديث العهد جداً إلا أنه قد أتى حتى الآن بثمرات طيبة وساعد على فهم الإنسان الأول فهما أعمق وأقرب إلى الدقة مما يبشر بعظم النتائج التى يمكن أن نصل إليها فى هذا المضمار باصطناع هذه الوسيلة . ونرجو أن نعرض فى أعداد تالية من هذه المجلة بعض المظاهر الأخرى للعقل البدائى التى تناولها التحليل النفسى بالبحث وأفلح فى حلها وردها إلى أصولها الأولى

Résumé.

PSYCHANALYSE DE LA MENTALITE PRIMITIVE

Par

Ahmad Abou Zeid

Le prélogisme de la mentalité primitive, ou mieux son caractère contradictoire peut être mieux expliqué à la lumière des recherches de Freud, Géza Rôheim, Reik, Jones, Money-Kyrle. On montre l'origine inconsciente des contradictions de la pensée et de la conduite, le rôle du complexe d'Œdipe comme fondement de l'organisation sociale des primitifs. Etude de quelques institutions sociales, morales et magiques pour montrer comment l'analyse en profondeur de la mentalité primitive, à l'aide des conceptions psychanalytiques éclaire d'un jour nouveau certains problèmes anthropologiques, tels que l'origine et la signification du Totem et du Taboo, rites relatifs à l'initiation sexuelle des adolescents, procédés magiques de défense et de vengeance, etc...

On montre la fécondité du parallèle fait entre primitif, névropathe et enfant, mais les différences sont aussi soulignées.